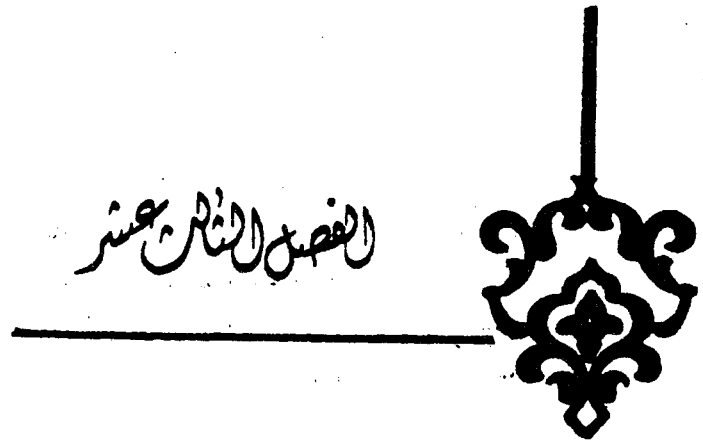

الفصل الثاني عشر

الجرجاني ونظرية النظم

شغلت قضية الاعجاز القرآني الفكر البلاغي والنقدي العربي منذ القرن الاول للهجرة.ولم يكن عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) اول من تكلم فيها ولا اخرهم . ومع ذلك فكتابة (دلائل الاعجاز) يحتل مركزا مرموقا ضمن المؤلفات التي وضعت للتدليل على اعجاز القرآن الكريم والسبب هو ان مؤلفه نظر الى الاعجاز من زاوية لم تألفها معظم الدراسات السابقة واللاحقة حتى ليصح القول انه يمثل حلقة متميزة في سلسلة الدراسات التي عالجت الاعجاز القرآني على مر القرون . فالجرجاني وقد بهره الاعجاز القرآني لم ير في دراسات السابقين مايمكن ان يكون مقنعا ليفسر اعجازه فبعضها نظر الى الاعجاز من زاوية خارجة عن النص القرآني كالاخبار بالغيب او الصرفة مثلا وبعضها الاخر نظر اليه من زاوية ضيقة جدا من شأنها ان تفسر الاعجاز على ايات معدودات.. اما الجرجاني فيرى ان الاعجاز انما يكمن في النص القرآني نفسه وفيما يسميه (النظم) على وجه التحديد .

وفكرة النظم التي يفصل فيها الجرجاني القول كثيرا ليست جديدة تماما فجذورها قائمة في بعض كتابات الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) والرماني (ت ٣٨٦ هـ) والخطابي (ت ٣٨٨ هـ) والباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) والقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) وقد دفع هذا بعضهم الى القول بتاثير الجرجاني بهؤلاء جميعاً او ببعض منهم(١) .

(١) انظر د . محمد زغلول سلام . تاريخ النقد العربي ٢/ ٣٩٤

ليس من شك في ان الجرجاني استوعب كل الافكار التي سبقته في هذا الموضوع وحاول ان يخرج بنظرية لا تفسّر الاعجاز القرآني حسب وانما النص الكلامي الرفيع شعرا كان ام نثرا وفي ضوء هذا يجمع الدارسون على ان الجرجاني جاء بنظرية تطابق احداث ماوصلت اليه النظريات الحديثة في علم اللغة . فالدكتور محمد مندور وهو من اوائل من التفت الى اهمية الجرجاني في تاريخ النقد العربي وقول ان (منهج الجرجاني يستند الى نظرية في اللغة ، تماشي ماوصل اليه علم اللسان الحديث حين يقرر المؤلف مايقرره علماء اليوم من ان اللغة ليست مجموعة من الالفاظ بل مجموعة من العلاقات(٢)

وتحاول بعض الدراسات ان تربط تفكير الجرجاني في (النظم) بالنظريات الاسلوبية المعاصرة(٣) وبصرف النظر ان كانت نظرية الجرجاني تقترب من ذلك فأنها ـ بلا شك ـ تستند الى نظرة النحو مخالفة للتصوير السائد الذي لايرى في النحو اكثر من الحركات الاعرابية التي تلتصق باواخر الكلمات وهو يعرض مايمكن ان نسميه (نحو المعاني) زد على هذا ان نظرية الجرجاني تعالج مستويات الكلام الذي يبدأ بالعادي المغسول وينتهي بالمعجز الذي هو القرآن الكريم .

يشكل كتاب الدلائل حجر الاساس في نظرية النظم على الرغم من ان (اسرار البلاغة) معنى هو الاخر بهذه الفكرة ولكل على نحو اقل . لان اهتمام الجرجاني في (اسرار البلاغة) موجه الى الكشف عن الجانب النفسي في النص الادبي من جهة ودور الصور البيانية في ذلك من جهة اخرى(٤)

بكلمة اخرى يهتم الجرجاني هنا في (معنى المعنى) ، اي المعنى الذي يكمن وراء المعنى الظاهري للعبارة ، ويريد بذلك المعاني المجازية اما في (دلائل الاعجاز) فهو معني بمعنى النظم وكونه تابعا للمعاني التي يراد التعبير عنها .

---

(٢) في الميزان الجديد (القاهرة ١٩٤٤) ١٤٢

(٣) انظر مقال (مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني) لنصر ابو زيد ومقال (النحويين عبد القاهر وتشومسكي) لمحمد عبد المطلب في مجلة (فصول) عدد ديسمبر ١٩٨٤ .

(٤) د . عبد القاهر حسين اثر النحاة في البحث البلاغي (القاهرة) ٢٦٩ . وقد كتب الاستاذ محمد احمد خلف الله فصلا رائدا في هذا الصدد في كتابه (من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده) .

لم يشرح الجرجاني نظرية (النظم) في الدلائل على نحو منهجي منظم. فالدلائل مجموعة افكار يعوزها شيء من الانتظام فهو يشرح الفكرة الواحدة في اكثر من موضوع .. هذا الى جانب ان اهتمام المؤلف بالنواحي التطبيقية ونعني بها عملية تحليل النصوص ولاسيما الشعرية.اكبر من اهتمامه بالجوانب النظرية . وقد لاحظ ذلك د . مندور فقال (ليس لنظرية الجرجاني من القيمة ما لتطبيقاته)(٥) ومع ان منهجه في تحليل النصوص قائم على فكرة النظم . الا انه لايخلو من اثر الذوق الشخصي كما يؤكد مندور .

ثم يمضي الى القول: ابتدأ الجرجاني بنظرية فلسفية في اللغة وانتهى الى الذوق الشخصي الذي هو مرجعنا في دراسة الادب(٦) لان العمد في إدراك البلاغة (النظم) الذوق والاحساس الروحاني وهو امر لايدركه الا الحدس وليس بالمستطاع تخيله ووصفه تماما . لانه كما يقول الموصلي امر تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصفة .

الاعجاز القرآني : ـ

ينكر الجرجاني . كما اشرنا ان يكون الاعجاز في الفاظ القرآن وحدها او في معاني الكلمات مفردة . كما يرفض ان يكون في ترتيب الحركات والسكنات او في الفواصل . ولا يمكن ايضا ان نجعل الاستعارة اصلا في الاعجاز لان ذلك يؤدي الى ان يكون الاعجاز في آيات محددة في مواضع من السور الطوال المخصوصة كما يقول(٧) فاذا امتنع ذلك لم يبق الا ان يكون الاعجاز في النظم والتأليف وانكار النظم انكار للاعجاز(٨) .

وكان الجرجاني معنيا بالرد على من يرى ان بلاغة الكلام في الفاظه او في معانيه او في الاثنين معا . وقد عرض في نظرية النظم تصورا جديداً يلغي ثنائية اللفظ والمعنى التي سادت الفكر البلاغي والنقدي العربي . فالنظم عنده محصلة العلاقة القائمة بين الالفاظ والمعاني . وينتج عن ذلك ما يسميه الجرجاني (الضورة التي تبدو كما لو كانت عنصرا ثالثا مزيجا من اللفظ والمعنى .

---

(٥) في الميزان الجديد ـ ١٥٥

(٦) المصدر السابق .

(٧) دلائل الاعجاز ٣٨٦ . ٣٨٧ . ٣٩١

(٨) المصدر السابق

يقول ان معظم الغلط الذي وقع فيه الناس جهلهم شأن الصورة وتصوروا ان ليس هناك غير اللفظ والمعنى . وانه اذا كان كذلك وجب اذا كان لاحد الكلامين فضيلة لاتكون للاخر ثم كان الغرض من احدهما هو الغرض من صاحبه . ان يكون مرجع تلك الفضيلة الى اللفظ خاصة وان لا يكون لها مرجع الا المعنى . من حيث ان ذلك زعموا يؤدي الى التناقض .(٩)

وقد تشير القراءة العجلة للدلائل الى ان الجرجاني ميال الى المعنى دون اللفظ . فهو دائم التكرار في ان الالفاظ ادلة على المعاني(١٠) وهذا حق طالما ان الالفاظ وحدها لاتعبر عن معنى دون الدخول في علاقات .. وليس للالفاظ قيمة الا في ضوء موقعها من التركيب والتأليف والنظم فليس هناك تفاضل في الالفاظ من حيث كونها

وحشية او غريبة . مألوفة او مأنوسة(١١) وقد غاب عن ذهن كثير من الناس كما يرى . ان قولنا (لفظة فصيحة) او(متمكنة) او (مقبولة) وفي خلاف ذلك (قلقة ونابية ومستكرهة) . هو تعبير عن حسن الاتفاق او سوء التلاؤم بين الالفاظ .(١٢) فهذه كلها صفات للفظة وهي في موقعها في الكلام وليست خارجة عنه . والدليل على ذلك ان لفظة ماتحسن في موضوع وتقبح في آخر . فالالفاظ على هذا لاتتفاضل من حيث الفاظ مجردة . ولا من حيث هي كلمة مفردة .(١٣)

وفي ضوء هذا يقدم الجرجاني مفهوما للفصاحة مخالفا لما يراه جمهرة البلاغيين عندما جعلوها صفة للفظ . في حين انها عنده مزية خاصة بالمتكلم دون واضع اللغة .

فالمتكلم لايستطيع ان يصنع بالالفاظ شيئا ولا يحدث فيها وضعا جديدا(١٤) فأن استطاع المتكلم اقامة نوع من التلاؤم بين الالفاظ فهو الفصيح وهذه هي الفصاحة وبها يتفاوت المتكلمون وتختلف الاساليب ولكون الالفاظ اوعية للمعاني

---

(٩) المصدر السابق ٢٨١ ـ ٢٨٢
(١٠) المصدر السابق ٢٨٣
(١١) المصدر السابق ٤٨
(١٢) المصدر السابق ٤٥
(١٣) المصدر السابق ٤٦
(١٤) المصدر السابق ٥٧

فهي تابعة لها(١٥) ولا تتحقق المعاني على نحو مايريده المتكلم الا بأن يضع الالفاظ على نسق مخصوص. ويبدو أن الجرجاني ـ هنا يتجاوب مع الجاحظ وقوله « انما الشعر صناعة وضرب من التصوير » على ان يفهم من لفظة « التصوير » هنا كما يرى الجرجاني ـ الاسلوب والنظم والتركيب الذي يميز نصا من اخر. لم يرد الجاحظ في مقالته هذه غير الشكل الذي يعرض فيه الكلام. ومن اجل ان ينفي الجرجاني عن نفسه تهمة سوء فهم قول الجاحظ. وربما كان يعرض تفسيرا اخر لمقولته. يقول الجرجاني في نص مهم له مامعناه أن البينونة (اي الفرق) بين احاد الاجناس تكون من جهة الصورة. ونحن نميز انسانا من اخر او فرسا من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا ولا تكون في صورة ذاك. ويطبق الجرجاني هذا على الشعر فيقول (ثم وجدنا بين المعنى في احد البيتين وبينه في الاخر بينونة في عقولنا وفرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا « للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك » وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتكرنا فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور من كلام العلماء ويكفيك قول الجاحظ. وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير(١٦)

نظم الحروف ونظم الكلمات :

ويكرر الجرجاني دائما انه اذا تغير النظم فلابد حينئذ أن يتغير المعنى(١٧). ان المعنى المطلوب تجسيده نابع من فكر المتكلم ويتحقق بارادته. فالنظم عملية ارادية واعية. وهو يختلف عن نظم الحروف في كلمات. فهذا نظم اعتباطي لا ارادة للمتكلم فيه. يقول « وذلك ان نظم الحروف هو تواليها في النطق. وليس نظمها بمقتضى عن معنى. ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسما من العقل اقتضى ان يتحرى نظمه لها لما تحرّاه. فلو ان واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك مايؤدي الى فساد. واما نظم الكلمة فليس الامر فيه كذلك لانك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النص. فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض. وليس هو النظم

---

(١٥) المصدر السابق ـ ٥٢

(١٦) الدلائل ٥٠٨ هذا خلاف مايراه معظم الدارسين من ان لفظة (التصوير) في عبارة الجاحظ تشير الى الصورة بدلالتها المعاصرة. وهذا وهم وقع فيه الكثيرون.

(١٧) السابق ٥٠٦

الذي معناه ضم الشيء الى الشيء كيف جاء واتفق . ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما اشبه ذلك مما يوجب اعتبار الاجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك . وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصح(١٨)

وعلى هذا لاقيمة للالفاظ مفردة لان ليس للمتكلم ان يتصرف في معناها او في نظم حروفها والامر ان هنا اعتباطان . ودور المتكلم يكمن في اختيار اللفظ وتوزيعها على وفق نسق معين يقتضيه ويوجبه المعنى المطلوب التعبير عنه فاذا قلنا مثلا (ضرب زيد) فالذي يعود الى المتكلم هو اثبات الضرب لزيد اولا ثم اثبات هذا الضرب في زمن مضى وليس اثبات دلالة . الضرب على لفظة (ضرب) او وصف حروفها على نحو ما هي عليه .(١٩)

والجرجاني على حق بمقدار ما يتعلق الامر بارادة المتكلم التي تنظم الكلمات على وفق المعنى وهو لايريد غير تأكيد ان النظم ملكة انسانية وليست الموازنة بين الطبيعة الاعتباطية (للالفاظ) والطبيعة الارادية (للنظم) مما يدعو الى ان نغمط حق اللفظة مفردة . فالنظم لايقوم الا بالالفاظ . كما لايقوم المداك الا بالحجارة . ان نظم الكلام كما يرى علم اللغة المعاصر لايقوم الا على مبدأي (الاختيار) و (التوزيع) . فالمتكلم يختار من مجموعة الفاظ اللغة ماينا سب المقام ثم يوزع هذه الالفاظ على وفق مايقتضيه المعنى . ومن هنا يبدو ان (مبدأ الاختيار ينصب على الالفاظ اما مبدأ التوزيع فعلى النظم .

وقد يبدو ان الجرجاني يرى ان الفكر الانساني لايتم الا في اطار العلاقات السياقية بين الالفاظ . اذ لايمكن ان يتعلق الفكر الانساني بمعنى اللفظة مجردة عن معاني النحو اي (العلاقات) فهل يتصور ان يفكر انسان بمعنى (فعل) من غير ان يريد اعماله في اسم او ان يفكر في اسم من غير اعمال فعل فيه(٢٠) . فالانسان في ضوء هذا التصور لايفكر الا بجمل او لايفكر الا نظما .

---

(١٨) الدلائل ٤٩

(١٩) الاسرار ٣٧٦ / ٣٧٨ (رتز) عن نظرية اللغة ٣١٢

(٢٠) الدلائل ٤٠ ، ٤١٢

ولسنا نسوق القول جزافا . فالجرجاني نفسه يرى ان معاني الكلام كلها لا يمكن ان نتصورها الا بين شيئين . وأساس هذه العلاقة بينهما والاصل هو الخبر(٣١) ومن الثابت والمعقول انه لا يكون خبر حتى يكون مخبر عنه ومخبر به . وهذا الخبر ينقسم الى اثبات ونفي والاثبات يقتضي مثبتا ومثبت له .. والنفي يقتضي منفيا ومنفيا عنه .. ولو حاولت ان تتصور اثبات معنى او نفيه من غير ان يكون هناك مثبت له ومنفي عنه حاولت مالا يصح في عقل ولا يقع في وهم .(٣٢)

انواع العلاقات في الخبر

وقد فصل الجرجاني في الخبر وكونه اصل المعاني وانه لا يقوم الا بين شيئين . فقال « ومعلوم ان الفكر من الانسان يكون في ان يخبر عن شيء بشيء او ان يصف شيئا بشيء . او ان يضيف شيئا الى شيء او ان يشرك شيئا في حكم شيء . او ان يخرج شيئا من حكم شيء او ان يجعل وجود شيء شرطا في وجود شيء آخر . وهذا كله امور معقولة زائدة عن اللفظ(٣٣)وتأمل قوله « زائدة عن اللفظ » لان مثل هذه المعاني الاخبار والشرط والنفي والاستثناء ... الخ لا تحصل باللفظ وحده وانما بشيء زائد عن اللفظ . وهذه الزيادة ليست اكثر من العلاقات التي يقيمها المتكلم بين الالفاظ والمعنى الذي ينشأ من ذلك . اذ لا تقوم اضافة او وصف او اشراك الا اذا اقمت صلة بين لفظ وثان .

والاشراك بين هذين اللفظين هو مايسمى بالاسناد الذي هو اصل المعاني وعماد الكلام ولانه اصل وعماد اخذ الرفع علاقة له لانها ارفع مراتب الاعراب(٣٤)

ولا يستثني الجرجاني المجاز من فكرة العلاقات . فاللفظة لا تكون مجازا بنفسها عندما تنقل من معناها الحقيقي الى معنى مجازي . فالمعنى المجازي الجديد لا يكون الا في سياق . يقول « أن في الاستعارة مالا يمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظم والوقف على حقيقته »(٣٥) . وليس الامر في قوله تعالى (واشتعل الرأس

---

(٣١) المقصود بالخبر عند الجرجاني . كما يبدو . الاسناد المعروف عند النحويين وليس المقصود به الخبر عند البلاغيين . والمراد به الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب . او الكلام الذي له نسبة في الخارج تصدقه او لا تصدقه وبخلافه الانشاء .

(٣٢) الدلائل ٥٤١

(٣٣) الدلائل ٤١٦

(٣٤) د . عبد الستار الجواري . نحو المعاني (بغداد ١٩٨٧) ٣٧

(٣٥) الدلائل ٢٠٠

شيبا) ان الاستعارة في (اشتعل) التي نقلت من معناها الحقيقي الى معنى مجازي وانما في كون الانتقال قد اسند الى الشيب(٢٦) . وقد ترتب على هذا معنى لم يكن للفظة اشتعل سابقا . وعلى هذا فالمجاز وان كان ظاهرة قائمة في اللفظ الا انه في الحقيقة في المعنى الذي هو النظم . يقول : والحكم من الاستعارة هي وان كانت في ظاهرة المعاملة من صفة اللفظ . فأن الامر الى ان القصد بها الى المعنى(٢٧) وكذلك الامر في صور البديع .(٢٨)

النظم ومستويات الكلام

النظم الذي يدور عليه فكر الجرجاني النحوي والبلاغي والنقدي عرفه بالقول « اعلم ان ليس النظم الا ان تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه واصوله وتعرف مناهجه .(٢٩)

ويقول ايضا في موضع سابق « معلوم ان ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض .(٣٠)

وبهذا ربط عبد القاهر كما يبدو فكرة النظم بالنحو فكان النحو عنده ليس كما يرى الجمهور . علم اواخر الكلمات وانما علم تعليق الكلم بعضها ببعض وقد دفع هذا بعض الباحثين المعاصرين الى تلمس مفهوم الجرجاني عن النحو . اهو العلم الذي يبحث كما اشرنا قبل قليل ـ في اواخر الكلمات ـ وفي مسألة الخطأ والصواب . ام انه العلم الذي يبحث في طرق التعبير عن المعنى عبر شبكة العلاقات التي يسعى الى اقامتها المتكلم ويسمونه (نحو المعاني)(٣١) .

يشير الجرجاني مرة الى (اصول النحو(٣٢) ومرة الى علم (النحو)(٣٣) ويعتقد باحث معاصر الى ان المراد بأصول النحو قواعد اللغة الاساسية التي بموجبها يثبت

---

(٢٦) السابق

(٢٧) السابق

(٢٨) اثر النحاة في البحث البلاغي ٣٦١ وما بعدها . وانظر في تحليل الاية الكريمة د . عبد الله درويش (نظرية النظم عند عبد القاهر) القاهرة ١٩٦٠، ص ٣٣

(٢٩) الدلائل ٨١

(٣٠) السابق ٥٥

(٣١) الدلائل ٤

(٣٢) السابق ٣

(٣٣) السابق .

الصواب للغة والكلام ويعلم النحو النظم نفسه . او الخصائص التي تجعل من الكلام نصا ادبيارفيعا(٣٤) وعلى هذا فالجرجاني يميز بين النص على مستوى الخطأ والصواب . والنص على المستوى الادبي ومضى المعاصرون الى القول ان عبد القاهر كان على وعي تام بالفوارق بين (اللغة) و (الكلام) ذلك الفرق الذي اشار اليه اول مرة العالم السويسري فردناند دي سوسير وطوره الدارسون اللاحقون عليه واطلقوا عليه مرة مصطلح (الكفاءة و (الانجاز) ومرة (النظام) و (النص) او (القاعدة) و (الرسالة)(٣٥) ويريدون بالمصطلح الاول (اللغة او الكفاءة او النظام او القواعد) قواعد اللغة التي يلتزم بها المنشؤون والكاتبون بقواعد اللغة العربية مثلا ويريدون بالثاني (القول او الانجاز او النص او الرسالة) اي نص ادبي متحقق على وفق قواعد اللغة التي يكتب فيها المنشيء قصيدة لابي تمام او للمتنبي أو نص لطه حسين على سبيل المثال . فالجرجاني على وفق هذا التصور كان يدرك ان (اصول النحو معينة بالقواعد الاساسية . اما (علم النحو فهو النظم نفسه ولذلك قال « وليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو(٣٦) فكأن النظم هو التحقق الفعلي للغة . فأصول النحو هي النظم بالقوة . اما علم النحو فهو النظم بالفعل كما يقول المناطقة .

ولا يختلف في هذا باحث ثان اذ يرى عبد القاهر ينظر الى عملية الابداع على انها تمر بمرحلتين . تتمثل المرحلة الاولى في مرحلة الخطأ والصواب . والاخرى تتعدى هذه المرحلة التي مناط الفضيلة والمزية(٣٧)

ويمضي الباحث إلى القول ان الجرجاني بهذا المفهوم يتعامل مع النحو على المستوى السطحي والمستوى العميق . وهو منهج من ينتمون الى نظرية النحو التوليدي التي ترى ان للغة مستويين . سطحي وعميق . فالبنية اللغوية العميقة هي الصورة المثالية الكاملة للجملة كما ترسمها قواعد النحو . وهي صورة افتراضية . اما البنية الظاهرة فهي الشكل الواقعي الملموس للتركيب . وهي بلا شك مستمدة من البنية العميقة التي يسميها عبد القاهر (اوضاع اللغة) او اصول النحو كما مربنا . وهي مرحلة تخلو من البراعة الفنية التي لاتتحقق الا في المستوى الظاهري للتركيب وهو مستوى التأليف والعلاقات . اي بكلمة اخرى مستوى النظم .(٣٨)

---

(٣٤) مفهوم النظرية . عبد القاهر . مجلة فصول ديسمبر ١٩٨٤ . ١٥

(٣٥) النص والخطاب والاجراء د . عبد السلام المسدي (الاسلوبية والاسلوب) تونس ١٩٨٤ ٣٩ .

(٣٦) الدلائل ٨١

(٣٧) د . محمد عبد المطلب . البلاغة والاسلوبية (القاهرة ١٩٨٤) ٤٩

(٣٨) السابق ٤٩ ـ ٥٠

نظرية النظم في ضوء هذا التصور هي نظرية في تحليل العلاقات القائمة في الاسلوب الادبي المتميز . وقد لاحظنا ان (المزية والفضل في اي اسلوب تابع من طريقة التركيب او التأليف) اي من العلاقات التي يقيمها الكاتب بين الفاظه . وما ينجم عن هذا التأليف من تقديم او تأخير او فصل او وصل او قصر او اختصاص او توكيد ... الخ .

وهذه الامكانات ذات طبيعة اختيارية ولذلك يتميز كاتب من اخر بأسلوب وطريقة نظمه فيرتفع اسلوب ويسف اخر . فمن الواضح ان الكاتب لايستطيع ان يتصرف في قواعد اللغة . لان طبيعتها الزامية . اما قواعد التركيب والنظم فحرية التصرف للكاتب لامتناهية . والنظم والتركيب يخضع لبراعة الكاتب وفنه . اذ للمبدع ان يقدم فنه بطرق مختلفة من الوضوح والغموض او الزيادة او النقصان . وهذه امور تتجسد على مستوى الصياغة الملموسة بالتقديم او التأخير او الحذف والذكر او التعريف او التنكير وهذه الفروق المختلفة في تقديم المعنى يسميها الجرجاني (الاسلوب) فهو « الضرب من النظم والطريقة فيه »(٤٠) . وفي هذا يكن تفرد الاسلوب . يقول (اعلم انا اذا اضفنا الشعر او غير الشعر من ضروب الكلام الى قائله لم تكن اضافتنا له من حيث هو كلم واوضاع لغة . ولكن من حيث توخي فيها النظم(٤١) . لان الاضافة اختصاص . واضافة الشيء لصاحبه اختصاص به ولايكون للشاعر او الاديب اختصاص بالالفاظ وحدها او باوضاع اللغة . انما بالعلاقات التي يختارها لينظم الالفاظ . فكما ان الحلي لاتختص بالصائغ من حيث كونها ذهبا او فضة . ولكن من جهة العمل والصنعة كذلك الشاعر .(٤٢)

والعلاقات التي يصنعها الكاتب لاتكون حتى يكون هناك قصد الى صورة معينة ان لم يقدم فيها ماقدم او يؤخر فيها ما اخر لم تحصل تلك الصورة .(٤٣) هناك اذن هدف . وهناك طريق يوصل اليه . وبكلمات هناك (قصد) وهناك (نظم) يحقق ذلك القصد . والقصد الذي يريده الجرجاني لايستهدف الايصال فقط . فهذه مهمة الكلام الاعتيادي الغفل عن المزية والفضل اللذين لانجدهما الا في الكلام الادبي .

---

(٣٩) النحو بين القاهر وتشومسكي (مجلة فصول ديسمبر ١٩٨٤) ٣١

(٤٠) الدلائل ٤٦٨

(٤١) السابق ٣٦٢

(٤٢) السابق

(٤٣) السابق ٣٦٤

ولذلك سعى الجرجاني الى تحليل الكثير من الايات القرآنية والنصوص الشعرية لبيان مافيها من مزية وفضل . وطرق تحقيق ذلك . الامر الذي قاده الى الحديث عن جملة اساليب العربية في الكلام كالتقديم والتأخير الذي هو باب كثير الفوائد حجم المحاسن واسع التصرف . بعيد الغاية . لايزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك الى لطيفة . ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف اليك موقعه ثم تنظر فتجد سبباً ان راقك ولطف عندك ان قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان الى مكان(٤٤) ذلك ان معرفة (الحذف والتكرار) و (والاظهار والاضمار) و (الفصل والوصل) مهمة لمعرفة اساليب البلاغة فاذا كانت هذه امورأهينة وكان المدى فيها قريبا والجد يسيراً من اين كان نظم اشرف من نظم ؟ وبم عظم التفاوت واشتد التباين وترقى الامر الى الاعجاز .(٤٥)

السرقات الشعرية

لقد اتاحت نظرية النظم على نحو ماشرحناه للجرجاني ان يعض فهما لموضوع السرقات وقدمر بك طرف مما كان النقاد العرب يرونه في هذا . ونعتقد ان للجرجاني تصورا مختلفا وجديراً بالتأمل .

ان اختلاف (صورة) الكلام او اسلوبه او نظمه لابد ان يقود الى اختلاف في المعنى مثل اختلاف الناس بعضهم عن بعض بسبب اشكالهم وصورهم .

ان النتيجة المنطقية لمفهوم (النظم) لابد ان يقود الى التصور الاتي (اختلاف الصورة يكون سببا في اختلاف المعنى والعكس صحيح ايضا) ولقد طبق الجرجاني هذا التصور على السرقات وتجنب من امر العلماء الذين يتحدثون عن (الاخذ) و (السرقة) او يتحدثون عن « اخذ معنى عاريافكساه لفظا من عنده كان احق به) وما الى ذلك . ثم لايتساءلون من اين يتصور ان يكون ههنا معنى عار من لفظ يدل عليه . ويمضي الجرجاني الى القول .. كيف لنا ان نتصور ان واحدا احق بالمعنى من اخر اذا لم يحدث في الكلام او المعنى صفة او فضيلة ؟ فاذا صح هذا . فليس معنى قولهم كساه لفظا من عنده . غير انه احدث في المعنى صورة جديدة

---

(٤٤) السابق ٣٦
(٤٥) السابق ٣٩